

له ذلك أحسن تدبير، ولم يكن خالد يطمئن حتى يدعو إلى داره كبار الموظفين وأهل الثراء، فإذا رآهم يطعمون وينعمون، ولا يُنكرون من أمر الدار شيئاً امتلأت نفسه غروراً وفخراً، وعاد على امرأته بذلك يمنحها أخلص الحب، ويُثني عليها أجمل الثناء.

وأما سليم فأقام في مدينته الأولى لم يبرحها، وعلى عمله الأول لم يغيره، وعلى عادته القديمة لم يبدل منها شيئاً؛ فكان كل شيء يتجدد من حوله وهو مُقيم على قدمه، يكره التطور وينفر من التجديد، ولم يكن له حظ من طموح ولا أمل في رقي، رضي بما قسم الله له، ورأى أنه أبعد أماده وآخر غاياته، فاطمأن إلى نهاره وليله، وإلى ما يلقى في نهاره وليله من حوادث الحياة، وشغل بما كان يلقى من زوجتيه من شرٍّ وضر.

وكان إذا ضاق بالحياة أو ضاقت الحياة به في مدينته عمد إلى صديقه وأخيه يزوره، يقضي عنده الأيام، وقد يقضي عنده الأسابيع، يجد في ذلك السعادة والراحة والرضا، وتجد الأسرة في مقامه عندها سعادة وراحة ورضاً أيضاً، فقد كان كثير العبث بأخيه وأبناء أخيه، يتندر على هذا الترف الذي يتكلفونه؛ فقد كان يرى كل شيء عندهم تكلُفاً، ويسخر من هذه المكانة التي يرفعون إليها أنفسهم وهم أبناء ذلك الشيخ الذي أنفق حياته في تجارة انتهت إلى كساد، وفي صلاح كاد ينتهي إلى فساد؛ يجلس إلى مائدتهم تلك المرتفعة قد صُفَّت حولها الكراسي، فلا يملك نفسه إلا أن يغرق في الضحك، وأن يُذكر خالداً بأيامه تلك القرية وأيام أبيه حين كانوا يجلسون إلى طعامهم مرتبعين على الأرض، يغمسون أيديهم في صحافهم إلى الأرساغ، وقد يغمسونها إلى المرافق حين تُقدَّم لهم صحاف الفت والكشك في بيوتهم أو في أعقاب الذكر، وكانت الأسرة تسمع هذا منه فتضح له ضحكاً كثيراً، رُبَّما صرف الصبية والشباب عن طعامهم، وربما أشرق بعضهم بشرابه.

وكانت «منى» تسمع له فتضح أول الأمر، فإذا أكثر سليم همَّت أن تُظهر غيظها، ولكن سليماً يضطرها إلى الضحك حين ينتقل من عمه علي إلى أبيها الحاج مسعود، ذلك الذي أتاح الله له تجارة رابحة وصلاًحاً مُتصلاً، ولكنه ما زال يجلس على الأرض إذا أراد أن يطعم، وما زال أحب الطعام إليه الثريد والكشك يغمس فيه يده إلى مرفقه: فلا تفخري يا سيدتي، فلم يلدك الترك ولا أنت بنت المدير. هنالك لا تملك الأسرة نفسها من الضحك والإغراق فيه، وكان سليم أسرعهم إلى الضحك وأبطأهم في الرجوع إلى الجد، لا يسخر من الأسرة وحدها، وإنما يسخر من نفسه قبل أن يسخر من أي إنسان آخر، وكان أشد الأشياء إثارة للغیظ في نفسه أن يرى الأسرة تعاف الماء الكدر وتحرص على